الآداب الأجنبية

في الأدب الإنجليزي

رسالة صَمُوِل جنسن[1]

إلى لورد تشسترفيلد[2]

بقلم

مهدي علام أستاذ التربية بدار العلوم

تعريف بالرسالة:

تعد هذه الرسالة درة من درر الأدب الإنجليزي، تتعاقب عليها الأيام فلا تزيد الناس إلا إعجاباً بها وحرصا عليها. ولعل الأفضل ألا أطريها أكثر مما فعلت، ولعل من الخير أن أتركها تتحدث اليكم عن نفسها لتصل إلى مواضع الإعجاب من قلوبكم، ومواطن الإقناع من عقولكم. وحسبي أن ينالني شرف نقلها إلى لغتنا الكريمة، وحسب «صحيفة دار العلوم» أن تكون أول مطبوع عام ينشرها بالعربية الفيحاء.

ولهذه الرسالة قصة نقصها، إيضاحا لها، وعونا على تذوقها:

نشأ صَمُوِل جنسن فقيرا معوزا، ولكنه كان أديبا فحلا كاتبا كان

---

(١) Samuel Johnson (١٧٠٩ — ١٧٨٤)

(٢) Lood Chesterfield (١٦٩٤ — ١٧٧٣)

قوى التعبير ، حسن الديباجة ، متهكما لاذعا فى تهكمه ، وكان خطيبا مفوها ، لبقا ، لم يصرع مرة فى مساجلاته . وكان إلى ذلك واسع الإطلاع فى متن اللغة . وشرع الكاتب يؤلف «معجما» فى اللغة الإنجليزية ، هو أول معجم طموح فى تلك اللغة .

وكان للعلم والأدب فى ذلك العصر حماة وأولياء من أعيان البلاد وأشرافها ، فكانوا يرعون بجاههم ويساعدون بمالهم ، الشعراء والكتاب والمؤلفين ، على مثال ما كان فى بعض عصور الأدب العربى .

وأراد جنسن أن يهدى معجمه إلى ولى من هؤلاء الأولياء ، هو لورد تشيستر فيلد ؛ لينال بذلك عطفه ومؤازرته فى إخراج الكتاب ونشره . غير أن هذا الولى كان فى عطفه على العلماء — على مايظهر — أقرب إلى الرياء منه إلى الأخذ بنصرة العلم والأدب ؛ ذلك إلى أن جنسن لم يكن ، على علمه وأدبه ، من رجال المجتمع الراقى . فقد كان فى أخلاقه خشونة ، وفى حديثه جفاء واعتداد بالنفس ، وفى محاضرته صلف وكبرياء ، وفى صوته عنجهية ، وفى ثيابه رثاثة تنبو عنها مجالس الخاصة .

ولقد أعلن إهداءه الكتاب إلى ذلك العظيم ففحه ببضعة جنيهات ، ولكنه — مع ذلك — لم يحسن استقباله فى قصره وبين ضيفه . لأن ذلك الشريف لم يشأ أن يرى طفاسه مبرقشة بوحل لندن ، ولا أن يرى حساءه وخموره تنثر يمينا وشمالا ، على الحلل الفاخرة التى يرتديها ضيفانه من رجال الطبقة الراقية وسيداتها ، بيد ذلك الأديب المذهول المختبل ، الذى كان مفزعا فى حركاته مقلقا بالأصوات الخشنة التى يطلقها من حنجرته ، والذى كانت ثيابه تجعله شبيها بالمجذار .

ولقد ظل جنسن يزور وليه زمنا ، حتى صدف عنه الخدم ، وأعرضت عن استقباله الدار ؛ فولى وجهه عن القصر المنيف ، ولكن إلى العمل الشريف ، والجهد العنيف .

وبعد سبعة أعوام قطعها جنسن فى دأب واضطلاع ، أخرج للناس معجمه العظيم . وهنا أدرك تشسترفيلد شرف إهداء هذا العمل الجليل إليه ، وأراد أن يسترد حمداً كان قد أضاعه ، وأن يشترى لسان ثناء كان قد فرط فيه ، وأن يظلل برعايته رأساً أصبح بعد احتمال وهج الشمس وهاطل المطر فى غير حاجة إلى ظلة : فكتب فى مجلة « الدنيا » [1] مقالتين يقرظ فيهما معجم جنسن . فرد عليه المؤلف بالكتاب التالى :

***

٧ فبراير سنة ١٧٥٥

مولاى !

لقد أبلغنى صاحب مجلة « الدنيا » منذ قريب أن المقالتين اللتين نشرتا تقريظاً لمعجمى هما بقلم فخامتكم . وإن فى هذا لشرفا يعجزنى عن تقبله ، كما يقعد بى عن شكره . أنى لم أتعود قبول صنائع المعروف من العظماء .

إنى حين زرت فخامتكم — على إثر قليل من التشجيع — أسرنى ما أسر سائر البشر من سحر بيانكم ، ولم أستطع إذ ذاك أن أفطم نفسى عن الأمل فى أن أفتخر بأنى أصبحت لا يعصى لى الدهر أمرا ، وبأنى قد أنال تلك الرعاية التى رأيت الدنيا تقتتل فى سبيل الحصول عليها . ولكننى ألفيت زيارتى لا تقابل إلا بترحاب الزاهدين فيها ، فلا الكرامة ولا التواضع كانا يسمحان إذن باستمرارها . إنى حين خاطبت فخامتكم ذات مرة على مسمع من الجمهور ، قد استنفدت كل ما يعرفه من أدب الخطاب أستاذ معتكف غير خبير بآداب العظماء ، ولكن ليس فى الدنيا من يرضى بأن يكافأ على جهده بالتغاضى ، مهما يكن ذلك الجهد ضئيلا .

سبعة أعوام ، يا مولاى ، قد تمت منذ اليوم الذى كنت أنتظر فيه

(١) The World

فى دهليز داركم ، أو أنحى فيه عن عتباتكم ، وأنا فى خلال ذلك الزمن أدفع بعملى فوق أشواك الصعوبات التى لا أرى فائدة فى الشكوى منها . وهأنذا قد وصلت آخر الأمر بكتابى إلى حافة النشر ، من غير يد مساعدة ، ولا كلمة تشجيع ، ولا ابتسامة صنيع . ألا إنى لم أترقب مثل تلك المعاملة لأنى لم أستظل فى حياتى برعاية ولى .

لقد قدر آخر الأمر لراعى الغنم ، فى ثرجل ، أن يعرف الحب ، ووجده من سكان الصخور (١) .

أليس ولى النعمة ، يامولاى ، هو ذلك الذى ينظر بغير اكتراث إلى رجل يصارع المياه طلباً للنجاة من الغرق ، فاذا ماشارف الشاطىء عاقه بتقديم يد المساعدة إليه ؟ إن هذه الرعاية التى تفضلت بها على عملى لو كانت مبكرة لكانت طيبة ، ولكنها قد تأخرت حتى أصبحت لا أبالها ، ولا أستطيع أن أستمتع بها . قد تأخرت حتى أصبحت منعزلا ، ولا أستطيع أن أعلنها . قد تأخرت حتى أصبحت معروفا ، وفى غير حاجة إليها . وعسى ألا يكون من نكران الجميل ألا أعترف بيد لم ينلنى خيرها ، أو ألا أعلن للناس أننى مدين لذى جاه بما أقدرتنى عناية الله على النهوض به وحدى .

أما وقد وصلت بعملى إلى هذه المرحلة ، غير مستمد عوناً من رعاة العلم وأوليائه إلا القليل القليل ، فلن أيأس من إتمامه بأقل مما نلت من عونهم — إن كان فى الامكان عون أقل مما منحونى ، فانى قد استيقظت ، منذ زمن طويل ، من حلم الأمل الذى كنت به معتزاً فخورا .

مولاى
من خادمكم المطيع
صمول جنسن

وبعد هذا أعلنت هذه الرسالة انتصار دولة الأدب على دولة المال ،

(١) الاشارة هنا إلى حادثة فى رواية لاتينية .

وحاجة ذوى الجاه إلى شرف العلم، وحققت صدق الحكمة العربية القائلة « فكم من راغب قد كان مرغوبا إليه، وطالب اصبح مطلوبا مالديه . »

أما تهكمها فانه يتحدث عن نفسه : عف نزيه ، ولكنه مر لاذع ، فيه عظمة وكبرياء ، ولكنه يحمل فيهما حق الجزاء .

ولقد اشتهرت عبارات هذا الكتاب بين كتاب الإنجليز حتى إن أعظمهم غير مدافع ، وأقدرهم بدون استثناء ، برنرد شو ، قد اقتبس إحدى عبارات جنسن . ففى ليلة من ليالى نوفمبر سنه ١٩٢٦ كنا نستمع إليه فى لندن يحاضرنا فى « الدولية المثقفة » وكنا قد اطلعنا فى الصحف فى صبيحة ذلك المساء ، على أن برنرد شو قد منح جائزة نوبل ، وأنه ردها . فقبل أن يبدأ محاضرته طلبنا إليه أن يكلمنا عن سر رفضه جائزة نوبل ؛ فألقى كلمة بليغة قال فيها إنه يستمتع بشهرة أكثر مما تحتمل صحته . وإنه يرى أن جائزة نوبل إنما شرعت تشجيعا للعلماء والأدباء الناهضين ؛ أما هو فانه يرى نفسه قد جاوز هذا الحد ؛ وأن هذه الجائزة في طريقه الآن بمثابة الحبل الذى يعوقه وقد بلغ الشاطئ . ومهما كانت حاجته إلى هذه الجائزة حينما كان يصارع الحياة طلبا للنجاة ، فإنه لا يستطيع أن يقبلها الآن وقد استوى على قدميه .

وشبيه بهذا الكتاب فى أسلوبه كتاب حفنى ناصف بك إلى السيد توفيق البكرى حينما تغافل السيد عن حسن استقباله . ولو أننى كنت أكتب فى غير « صحيفة دار العلوم » لاقتبست ذلك الكتاب أو فقرات منه ، أما وأنا أكتب لمن هم أعلم به منى فخليق بى ألا أعتدى على مدى اطلاعهم ، وأن أكتفى بالإشارة إلى قطعة أدبية هى بعض مايجرى على ألسنتهم ؟

مهدى علام